الفصل السابع عشر

الرجال العمليون

113

باختصار ، الحركة الجماهيرية يخطط لها رجال الكلمة، ويظهرهـا إلى حيز الوجـود المتطرفون، ويحافـظ على بقائها الرجال العمليون.

قـد يكـون من فائـدة الحركـة، بل قـد يكـون شرطًا من شـروط بقائها، أن يؤدي هـذه الأدوار المختلفة رجال مختلفون يأتي الواحـد منهم بعد الآخر حسب متطلبات المرحلة. عندما يقـود الشخص نفسه، أو أشخاص بطبيعة واحدة، الحركة من بدايتهـا إلى نهايتهـا، فإن الحركـة تنتهي، عـادة، بكارثة، لم يحـدث أي تغيير في قيادة الحركة النازية أو الحركة الفاشية، وانتهت الحركتان نهايـة مأساوية. كان تطرف هتلر، وما تبعه مـن عجز عن الهدوء والقيام بدور الرجل العملي، المسؤول عن تدمير النازية. لو مات هتلر في منتصف الثلاثينيات، كما كان هنـاك أي شك في أن رجلًا عمليًّا مثـل جورنج[1] كان سيتولى القيادة، وكان بإمكان النازية أن تبقى.

هنـاك، بطبيعة الحال، إمكانيـة حدوث تغيير في الطبيعة البشرية. بوسع رجل الكلمة أن يصبح متطرفًا حقيقيًّا أو رجلًا

(1) كان هيومـان جـورنج (1893-1946م) مـن أوائـل القادة النازين، ومـن أعوان هتلر المقربين، وقد مات منتحرًا في سجن الحلفاء بعد الحكم عليه بالإعدام (المترجم).

عمليًّا. إلا أن التجربة تشير إلى أن مثل هذا التغيير يكون، عادة، مؤقتًا: بعد وقت يطول أو يقصر يرجع المرء إلى طبيعته الأصلية. كان تروتسكي، أساسًا، رجلًا من رجال الكلمة. كان معتدًا بنفسه وذكيًّا وفرديًّا إلى أبعد حدّ. غير أن التغييرات الهائلة التي عاصرها، انهيار النظام القيصري وتصميم لينين الحديدي، دفعت بترتسكي إلى معسكر المتطرفين. أثبت خلال الحرب الأهلية مواهب استثنائية في التنظيم وقيادة القوات. إلا أنه مع انتهاء التوتر في نهاية الحرب عاد، من جديد، إلى طبيعته القديمة، رجلًا من رجال الكلمة، متحررًا من الشدة والشكوك السوداء، واثقًا في الكلمات بدلًا من العمل المحموم، وهكذا سمح لنفسه أن يزاح جانبًا من قبل المتطرّف الماكر ستالين.

كان ستالين نفسه مزيجًا من المتطرف والرجل العملي، مع غلبة الجانب المتطرّف. إن أخطاءه الفظيعة -من الإبادة العبثية للكولاك(*) وأولادهم، والرعب الذي واكب التطهيرات المتوالية، والحلف مع هتلر، والتدخّل الفظّ في إبداع الكتاب

(*) كان اسم «الكولاك» يطلق في روسيا على طبقة المزارعين الميسورين، وفي سنة 1929م، قرر ستالين تأميم المزارع وإنشاء مزارع جماعية وإنهاء طبقة الكولاك، وفي سنة 1934 تم تأميم معظم المزارع، وكان هناك عدة ملايين من المنفيين والمهجرين والمعتقلين من طبقة الكولاك وغيرهم من المزارعين الذين عارضوا التأميم (المترجم).

والفنانين والعلماء - كانت كلها أخطاء رجل متطرف. لم يكن بإمكان الروس، طالما ظلَّ ستالين في السلطة، أن يتذوقوا أي متعة من متع الحاضر.

وكان هتلر، بدوره، متطرفًا وقد أدّى تطرفه إلى تحطيم كل المنجزات المذهلة التي حققها عندما تصرّف كرجل عملي واقعي.

وهناك أيضًا، بطبيعة الحال، طراز نادر من القادة، مثل لنكولن وغاندي، وحتى فرانكلين روزفلت وتشرشل ونهرو(*). لم يتردد هؤلاء في استثمار جموع الناس وخوفهم لإيجاد أتباع مخلصين مندفعين حتى الموت في حماية قضية مقدّسة، إلا أنهم بخلاف هتلر أو ستالين، أو حتى كالفن (1)(**)، لم يحوّلوا معاناة النفوس المحبطة إلى لبنات لبناء عالم جديد.

(*) كان جواهر لال نهرو (1889 - 1964م) من أبرز تلامذة غاندي، وأقرب مساعديه إليه، ناضل وسجن في سبيل الاستقلال، وتولى رئاسة الوزراء منذ استقلال الهند سنة 1947م حتى وفاته. (المترجم).

(1) كل من لوثر وكالفن استهدف إقامة سلطة كنسية جديدة، أقوى وأكثر ديكتاتورية وحزمًا، وأقسى في معاركة الهراطقة، ومن الكنيسة الكاثوليكية انظر:

Jerome Frank, Fate And Freedom (New York: Simon And Schuster, Inc. 1943), p. 283

(**) يعدّ جون كالفن (1509 - 1564م) رجل الدين الفرنسي/ السويسري من أهم قادة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، وكان له تأثير كبير على الكنائس التي اتبعت مذهبه في أوروبا وأمريكا (المترجم).

إن مـا أبداه هؤلاء القادة النادرون من ثقة في النفس ينبع من إيمانهم بالإنسانية؛ ذلك أنهم أدركوا أنه لا يمكن لأحد أن يكون محترمًا ما لم يحترم البشر.

114

ينقذ رجل العمل الواقعي الحركة من النزعات الانتحارية، ومـن طيش المتطرفين. إلا أن ظهـوره يعني، عـادة أن مرحلة الحركة الديناميكية انتهت بالقضاء على الوضع القائم.

لا يهـم رجل العمـل أن يعيد صياغة العـالم بقدر ما يهمه أن يسيطـر عليـه. كانـت القوة المسـيّرة للحركـة في مرحلتها الديناميكية هي الاحتجاج والرغبة في التغيير الجذري، أما في المرحلـة النهائية فشغل الحركة الشاغل هو التنظيم والحفاظ على السلطة التي تم الفوز بها.

بظهـور رجل العمل يمكـن القول: إن الحماسـة المتفجرة للحركة قد حنطت ووضعـت في مؤسسات شبه مقدّسة. تتبلور الحركـة الدينية في شكل الكهنـوت والطقوس؛ وتتبلور الحركة الثوريـة في شـكل أجهـزة الرقابـة والإدارة؛ وتتبلـور الحركة القومية في شـكل حكومة ومؤسسات وطنيـة. إن إنشاء كنيسة يعنـي انتهاء مدة الدعـوة الأولى؛ وقيام الأجهـزة والمؤسسات الثوريـة يعني القضـاء على العقليـة الثورية وآلياتهـا. كما أن إنشاء المؤسسات الحكومية في دولة جديدة مستقلة تعني نهاية

المرحلة المتحمسة العدوانية. تعمل المؤسسات على تأبيد نموذج يجسد العمل الجماعي. يتوقع من أعضاء المؤسسات في مجموع موحد أن يتصرفوا، كما لو كانوا رجلًا واحدًا، إلا أنهم مع ذلك يبقون ممثلين لمؤسساتهم ولا يحكمهم الاندفاع العفوي القديم. في المرحلة الجديدة لا تتحقق الوحدة إلا من خلال الولاء الأعمى للمؤسسات: تصبح العفوية مرفوضة، ويصبح القيام بالواجب المثل الأعلى المنشود.

115

إن المهمة الأولى للرجل العمليّ عندما يسيطر على حركة جماهيرية منتصرة هي أن يضمن بقاء الوحدة والاستعداد للتضحية بالذات. إن هدفه هو إقامة مجموع واحد منظم، ومع ذلك يمكن أن يتصرف مثل رجل واحد. لا يستطيع الرجل العملي الاعتماد على الحماسة؛ لأن الحماسة، بطبيعتها، عاطفة عابرة. ولا يمكنه الاعتماد على الإقناع الذي لا يأتي دومًا بالنتائج المطلوبة. ولهذا فهو ينزع إلى الاعتماد، أساسًا على التدريب المستمر والقمع، إنه يرى أن المقولة التي تذهب إلى أن كل الرجال جبناء أصدق من المقولة التي تزعم أن كل الرجال حمقى، وهو ينزع، كما قال السير جون ما نارد، إلى تأسيس نظامه الجديد (في رقاب الناس لا في قلوبهم)[1].

(1) John Maynard, Russia In Flux (London:Victor Gollancz, ltd, 1941), p. 19.

إن الرجل العلمي لا يعتمد على الإيمان بقدر ما يعتمد على القانون.

ومع ذلك، فالرجل العملي لا يملك إلا أن يذهل بالمنجزات الكبرى التي تحققت بفضل الإيمان والعمل العفوي في أيام الحركة الأولى، إذ أمكن إيجاد أداة قوية من أدوات القوة من العدم. لا تزال هذه الذكرى راسخة في عقله، من هنا، فهو يحرص على أن يصنع للمؤسسات الجديدة واجهة جذابة من الإيمان، وعلى أن يكون هناك سيل مستمر من الدعاية المحمومة، برغم أنه يعتمد، أساسًا، على القمع. وفوق هذا، فهو يصوغ أوامره بلغة الثورة، ويستخدم الشعارات والصيغ القديمة، ويحيط رموز العقيدة بهالة من السمو والقداسة. يتحول رجال الكلمة والمتطرفون الذين واكبوا الحركة في مرحلتها الأولى إلى قديسين. برغم أصابع القمع الحديدية الموجودة في كل مكان، وبرغم التركيز على التدريب المستمر العنيف، فإن الشعارات القديمة والدعاية المحمومة تضفي على القمع طابع الإقناع وتسكو العادة المفروضة فرضًا رداء العفوية. يبذل الرجل العملي جهدًا كبيرًا لإظهار المرحلة الجديدة، وكأنها النتيجة المجيدة الحتمية لآمال المرحلة الأولى وصراعاتها.

يختار الرجل العملي بعناية الأساليب التي يستخدمها لإعطاء النظام الجديد الاستقرار والثبات. إنه يستعير من

القريب والبعيد ومن العدو والصديق. بل إنه يعود إلى النظام القديم الذي قضت عليه الحركة؛ ليقتبس منه بعض التقنيات التي توطّد الاستقرار، ويوجد بذلك، دون أن يقصد، استمرارية مع الماضي. ومنصب الديكتاتور المطلق الذي يظهر عادة في هذه المرحلة هو استخدام متعمد لآلية مقصودة، بالإضافة إلى كونه تعبيرًا عن الجوع إلى السلطة. إن الديكتاتورية كثيرًا ما تبرز مع بداية الحركة ومع نهايتها. إنها تعبير عن الرغبة في الثبات، ويمكن أن تستخدم لبلورة وضع لم يتبلور، أو للحفاظ على وضع بدأ في الانهيار. إن عصمة البابا أعلنت مرتين: كانت الأولى في عهد البابا إيرانيوس، في الأيام الأولى للبابوية في القرن الثاني، وكانت الثانية في عهد بيوس التاسع سنة 1870م حين بدأ أن البابوية موشكة على الزوال.

وهكذا نجد أن برنامج الرجل العملي مقتبس من هنا وهناك. كانت روسيا في عهد ستالين خليطًا غريبًا من البلشفية والقيصرية، والقومية، والسلافية، والديكتاتورية، وأشياء منقولة من هتلر، وعناصر من الرأسمالية الاحتكارية، كما كان رايخ هتلر الثالث مزيجًا من القومية، والعنصرية، والقومية البروسية، والديكتاتورية، بالإضافة إلى أشياء منقولة من البلشفية، والفاشية، وديانة الشنتو(*)، والكاثوليكية واليهود القدامى. كما

(*) تنتشر ديانة الشنتو في اليابان وتقوم في جوهرها على تقديس الأسلاف على نحو يشبه العبادة (المترجم).

أن المسيحيـة بعـد انتهـاء صراعـات القـرون الأولى وخلافاتها، تبلـورت في شـكل كنيسة سلطويـة، وأصبحت مزيجًـا من القديم والجديـد ومقتبسات من العـدو والصديق. أخـذت تراتيبتها من بيروقراطية الأمبراطورية الرومانية، وأخذت عناصر من الطقوس القديمـة، وجـاءت بمنصب القائـد المطلق، واتبعـت كل الوسائل المتاحة لاستيعاب ما يساعدها على البقاء ويقوي سلطتها[1].

116

عندما تقع الحركـة في قبضة رجل عملي، فإنها تكف عن كونها ملاذًا من آلام الوجود الفردي وتبعاته وتتحول إلى وسيلة متاحـة لصعود الرجل الطمـوح. إن اجتذاب الحركة رجالاً، لا يعانـون الإحباط هـو دليل قاطع على التغيـير الهائل الذي ألمّ بالحركة وعلى تأقلمها مع الوضع الراهن. كما أنه من الواضح أن إقبال الأعضاء الجدد يسارع في تحويل الحركة إلى مشروع مؤسسي. قال هتلر، الذي كان يرعى حركة النازية الوليدة: إن الحركة لا تستطيع أن تمنح أي مزايا في الوقت الحاضر (سوى الشرف والخلود، وحذّر قائـلاً: إن الحركة إذا خضعت لأفراد يريدون الاستفادة من الحاضر، فإن مهمتها قد انتهت)[2].

(1) John Addington Symonds, The Fine Arts, «Renaissance In Italy Series (London: Smith, Elder, And Company, 1906), pp. 19 -20.

(2) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Hough Ton Mifflin Company, 1943), p. 105.

تستمر الحركة، في هذه المرحلة، في اهتمامها بالمحبطين، لا لتستثمر تذمرهم في الصراع حتى الموت مع الحاضر، ولكن لكي تؤقلمهم مع مؤسساتها، وتجعلهم أتباعًا خنوعين مطيعين، وتمنحهم الآمال البعيدة والأحلام والرؤية. هكذا تصبح الحركة، بعد انتهاء مرحلتها الديناميكية، أداة من أدوات القوة للناجحين، ومخدرًا للمحبطين.